❖ مقدمـة :

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على الرسول الكريم وبعـد: من المتعارف عليه هو أن انتقال الرواية من الغرب إلى المشرق ثم إلى المغرب العربي كان بدافع التمازج الثقافي، وهي العملية التي أتاحت للعالم العربي المعاصر اكتساب طريقة فنية جديدة للتعبير بأساليب تقنية جديدة على الرغم من وجود مثيل لذلك النوع القصصي في التراث العربي القديم، إلا أن وجه المفارقة يتعلق بالتقنيات الفنية الجديدة في التواصل مع المتلقي، والمؤكد هو أن الرواية في الوقت الحالي صارت تتبوأ مكانة هامة ضمن فنون التعبير الأخرى على الرغم من حداثة تطورها، ولعل انتشار مقروئيتها إضافة إلى ملاءمتها لروح العصر، يعود إلى تفردها بصياغة مضامين لم يعد بوسع الشعر صياغتها وفق النمط الجديد الذي جعلت تتخذه الرواية وتتفرد به عبر مسارات تطورها الفني، فقد يكتفي الشعر بمجرد الذكر العابر أو الإشارة عبر إيقاعاته التصويرية أما الرواية فتأخذ من موضوعها مجالا فعليا للحديث والبوح، لتؤلف منه الحكاية التي هي الحياة الإنسانية بتجسيداتها الظاهرية والجوهرية، ولربما تفرع الموضوع الواحد إلى مواضيع جزئية في إطار الموضوع العام، فتعددت أشكال البنية السردية في إطار الرواية الواحدة وتعددت الفصـول...

مما يجعل الرواية الجنس الأدبي الأكثر قدرة على الهضم والتمثل والإفادة من الفنون الأخرى في حنين دائم إلى الخيال، وما بين غنى الحقيقة وجموح الخيال اجتهدت الرواية في أن تحتقب صفات الأجناس الأدبية الأخرى، وأن تفيد من فنون مختلفة غير الأدب كما استطاعت أن تهضم وتستثمر عناصر متنافرة حتى لتكاد تبدوا جنسا بلا حدود...الجنس القادر علـى التقاط الأنغام المتباعدة والمتغايرة الخواص لإيقـاع العصـر الراهـن .

وبما أن الأديب هو ضوء كاشف.. ووعي مبصر.. وقوة خلاقة.. ونغم ساحر.. وصورة بهيجة رائعة.. وسلطان قوي.. يقود الناس ويهدي القلوب ويعبر عن أرق مشاعر الإنسان المختلفة ويقدم الزاد الخالص للنفوس والقلوب والمشاعر، فيأخذ دور الهداية أو الانحراف أو التهذيب في الحياة بفضل الوعي المبكر والإحساس الصادق، حين يصبح رائدا من رواد البشرية الذين يسبقون خطاها إلى نبع الحياة، وحين يحمل رسالة الأدب الحق، رسالة الكلمة الطيبة كما انبثقت من نبعها الأول، حين يكون كذلك يأخذ دور الريادة والأسبقية كرسول من رسل الحياة...حين ذاك فقط يعرف أهمية دوره في الحياة، فالكاتب المبدع في هذه الحياة تجبره وتلح عليه بعض الضرورات والواجبات في إقحام نفسه في التجربة وحب المغامرة والتقصي حول بعض القضايا والتعمق فيها، فلا مناص لأي كاتب كان وفي أي عصر كان من أن يرجع ويستعين بتراثه الذي ينتمي إليه، وإن تعددت مشاربه الثقافية وإبداعـاته الأدبية فقد يجد نفسه مجبرا علـى الارتباط به فـي بعض الحالات .

إن علاقة الرواية العربية الحديثة والمعاصرة، والرواية التونسية على وجه الخصوص بالتراث قوية جدا إلـى حد أنهمـا يشكلان ثنائية متلازمة، وهذا يظهر من حيث براعة الكتاب فـي استلهـام التراث منوعـا باستخدامه ومتعمقا فـي دلالاته، فلقد كـان بالنسبة إليهم الحصن المنيـع الذي يلجئون إليـه كلمـا عصفت بهـم العواصـف .

أما مسيرة النقد فإنها تمتد بجذورها في أعماق التاريخ البشري منذ أن تلفظ الإنسان بكلماته الأولى معبرا عن أحاسيسه ومشاعره ومتطلباته الذاتية بطرق لبقة فريدة تجعله يتميز عن باقي الموجودات، وما النقد الأدبي سوى مجموعة من القواعد المنظمة التي تحاول كشف الأعمال الفنية الأصيلة من الزائفة، وذلك من خلال الغوص في أعماق النص الأدبـي لمعـاينة أصالة التجربة عند الفنان من عدمها، إلا أن هذه القواعـد تختلف من منهـج نقدي إلـى آخـر، ولكنها تهدف كلهـا إلـى إظهـار الجـوانب الفنية التـي يوظفهـا النص الأدبـي حتـى يمكـن أن يـوصف بصفـة الفنيـة .

لقد تنوعت هذه الاتجاهات النقدية بين "الخارج نصية" و"النصية" و"ما بعد النصية"، وإذا كانت المناهج "الخارج نصية" قد اهتمت بالجوانب الخارجية المشكلة للظاهرة الإبداعية الأدبية وكل ماله علاقة بحياة الفنان، فإن "المناهج النصية" قد اهتمت بدراسة الظواهر اللغوية والأدبية الكامنة داخل بنية النص معتبرة المؤلف قد مات، داعية بذلك إلى دراسة النص لذاته ومن أجل ذاته، محاولة تطبيق القواعد العلمية الصارمة على البنية التكوينية للنص، وأما مناهج "ما بعد النصية" أو "ما بعد البنيوية" فقد اهتمت بجوانب تخص الظاهرة الإبداعية، فبعدما أدركت عجز وعقم المناهج السابقة حاولت البحث عن طرق أخرى بإمكانها الوصول إلى تفسير أشمل وأوضح وأعمق للنصوص الأدبية، وقد وجدت ضالتها في أهم عنصر مشكل للظاهرة الإبداعية الأدبية، لذلك أسهمت مناهج ونظريات "ما بعد البنيوية" في تسليط الضوء عليه، بل جعلته مركزا لدراستها البحثية ممـا جعلها ترتبط به ارتباطا وثيـقا، فبمجرد ذكر أسمـاء هذه المناهـج يظهـر "التناص" متسللا من بينهـا معرفا بدوره الجوهـري الذي لا يمكن فصله أبدا عن الظاهـرة الإبداعية الأدبيـة .

وفي ظل تبلور هذا المفهوم في الدراسات الغربية ثم العربية المعاصرة عرف الخطاب الروائي التونسي المعاصر جملة من المتلاحقات الثقافية والتفاعلات النصية على المستويين التشكيلي والدلالي، فكان انفتاحه علـى النص التراثـي المتعدد الذي شكل المرجعية البكر للكاتب الروائـي القديـم والحديث والمعاصـر علـى حد سواء .

من هنا كان توجه الباحث نحو ظاهرة "التناص" باعتبارها واحدة من المفاهيم الحديثة التي تطرحها المحاولات النقدية المعاصرة في سعيها الدائم لتأسيس نظرية أدبية حديثة ذات أصول عريقة من التراث النقدي، أعاد النقاد المعاصرون صياغتها من جديد وأسهمت العديد من الاتجاهات الأدبية والمدارس النقدية المعاصـرة فـي بلورتهـا .

ولقد اشتهرت ظاهرة الكتابة الروائية في الأدب المغاربي الحديث وعرفت رواجا في الأوساط الأدبية فاكتسبت سلطة أدبية، وأصبحت أسماء مجموعة من المبدعين الروائيين بمثابة ذاكرة ثقافية تعتز بها الأفراد والجماعات، وأصبحت رواياتهم إرثا أدبيا وثقافيا يستحق الاهتمام والبحث في الأسباب والعناصر التـي مكنته من اكتساب هذه الجماهيرية.

وإذا كان البحث مغامرة نحو المجهول فلقد كانت هذه المغامرة في رواية "المعجزة" للأديب التونسي "محمود طرشونة" هي علامة دالة يشع وميضها في خارطة الرواية التونسية على أصالة صاحبها وتجذره من حيث أسئلة متنها الحكائي، ولغة خطابها السردي المتميز، والتي شكلت محور دراسة الباحث الساعية إلى البحث عن علاقة هذه الرواية مع غيرها من

النصوص الأخرى التي تتشكل منها وتعيد تشكيلها في آن معا، في جمالية فنية مثيرة للاهتمام .

وعليه جاءت دراسة الباحث هذه بعنوان:" **جماليات التناص في الرواية التونسية المعاصرة (رواية المعجزة لمحمود طرشونة أنموذجا) "** .

وفي ظل كل هذا الإبداع وثراء الأدب المغاربي بأنواعه كان من أهم الأسباب التي جعلت الباحث يختار هذه المدونة كأنموذج تطبيق لمقترحات هذه النظرية النقدية الحديثة هي: القناعة بأهمية الرواية في الفكر الإنساني المعاصر والذوق الفني الحديث، فلقد صارت الأقدر على امتلاك آليات التعبير على مشاغل العصر، وإن كانت السيادة في عصور سالفة للموروث الشعري بدافع قدرته على التعبير عن وقائع الحياة آنذاك طبقا لمقتضى الحال واستمرار هذا الموروث الفني المتميز، إلا أن حضور الرواية في العالم العربي والعالم عموما كان بدافع حاجة الإنسان المعاصر لذلك بغرض الاستجابة لنوازع فنية تقتضيها ظروف العصر الحالي .

ولأن الرواية التونسية كغيرها من الروايات المغاربية استطاعت بنصوصها اقتحام عالم الكتابة الروائية، كان اختيار "محمود طرشونة" الذي يعتبر من أكبر الروائيين التونسيين الذين أبدعوا في كتاباتهم الروائية من خلال روايته "المعجزة" بغية التعرف إلى أهميته الفريدة ومزاياه النادرة، التي قلما تحلى بها أثر مكتوب عن تجربة أدبية عربية في قطر مغاربي إن وجد مثل هذا الأثر بشموليته وإحاطته وعمقه وتعدده .

ولم يقع اختيار الباحث على هذه الرواية صدفة بل حدث ذلك بعد قراءتها، حيث بدت هذه التجربة الروائية المعاصرة بحاجة إلى دراسة تناصية تبين مدى إسهام العامل الثقافي والتراثي في تشكيل فصولها صياغة ودلالة، كما تراءى هذا الخطاب الروائي نصا يسمح بدراسة ثرية ومفيدة لظواهر سردية متعددة بلغ فيها الكاتب مستوى من الشحن في الجانب الذاتي والإبداعي الخاص والإبداعات الأخرى، بمعنى أنه قد نوع من تجاربه الإبداعية ومن قراءاته، الأمر الذي خلق لديه مادة يعيد تشكيلها ويخلق لها تنظيما خاصا تفتح للمتلقي آفاقا جديدة، فالدافع إلى ذلك هو ما يراه الباحث اليوم في نصوص الأدب من تداخل بين أنماط القول والتعبير والمعجم، وأشكال الأسلوب المستجلبة من نصوص مختلفة تتباين روافدها ومقاصدها .

إضافة إلى أن ظاهرة التداخل هذه قد صارت مبسما بارزا من مباسم الحداثة، انحرفت بنصوص روائية كثيرة عن جنسها وهو أمر- وإن بروره انفتاح النصوص على بعضها البعض- اتخذ في بعض النصوص شكل المغالاة في بلاغة العبارة وتقليد بنية النص التراثي وأشكال تركيبه .

إضافة إلى ذلك قلة الدراسات التي تناولت أعمال "محمود طرشونة" وكذا تركيز معظم الدراسات والأبحاث المغاربية على كل ما هو شرقي حتى أصبحت كلمة "مشرق" تعني في حد ذاتها "الإجادة"، مع العلم أن الأدب المغاربي قد تجاوز المشرق بكثير وخاصة في جنس الرواية، وكذا عدم اهتمام النقاد المشارقة بالأدب المغاربي، وحتى الدراسات التي قدمت

حوله، مع العلم أن الحركة النقدية المغاربية في العصر الحالي تواكب الحركة النقدية العالمية، في حين تخلف عن ركبها المشرق عدا بعض الأسماء في بعض البلدان .

وبما أن الرواية المعاصرة تنتمي إلى قطاع واسع من الإنتاج الثقافي فإنه لا ريب أن تكون من "أهداف البحث" في هذا النوع من النصوص هو فتح آفاق جديدة للتفكير أمام الباحث فظاهر الموضوع لا يحمل إشكالا، ولكن ما يود الباحث التطرق إليه هو وضع "التناص" بين دراسة نظرية وتطبيقية يستطيع الباحث بواسطتها تتبع الخيوط التي نسج الأديب منها نصه، فأنتج نصا جديدا يحمل خصوصياته فيكشف عن بنياتها التناصية ومستوى التعامل الفني مع النصوص الغائبة .

إن الغرض من هذا التحليل كذلك هو الكشف عن الرؤى الفنية والجمالية والفكرية عند "محمود طرشونة" من خلال استناده على ذخيرة التراث العربي السردية، والتي تعكس ثقافة هذا الروائـي ونظرته إلـى الكون وإلـى الحياة ومحاولة فهم طبيعة تأثر النص الأصلي بالنصوص الأخرى وطبيعة تحاورهما .

والهدف الأهم من كل هذا هو السعي إلى الاستفادة من "التناص" كأداة منهجية إجرائية في مقاربة النص السردي، لأن الموضوع يتطلب التساؤل عن غاية الكاتب من استعمال "التناص" وكيفية استدعاء المبدع للنصوص الغائبة في نصه ليجعلها تخدم مواقفه وسياقاته.

لقد استرعى اهتمام الباحث موضوع "التناص" فكانت الرغبة شديدة للتطرق إليه كمصطلح جديد معاصر من حيث البلورة ومن حيث التناول، للكشف عن ماهيته وأهميته في الدراسات النقدية الحديثة، كما كانت هذه المدونة المختارة محل اهتمام كبير قصد رصد تداخلاتها النصية، ومنه إبداء الاستناد النصي القوي فيها، فهي رواية حديثة العهد يمكن أن تفتح دراستها مجالا واسعا للبحث والاطلاع وإثراء حقول معرفية فكرية وفنية جمالية كثيرة، لعله بذلك يثير أسئلة لم تكن في الحسبان، أو يعيد طرح أسئلة قديمة في صياغة جديدة من خلال قراءة يخالها تسعى لهذا الغرض بإخلاص .

إن الإشكالية التي يحاول الباحث طرحها في هذا الموضوع تظهر في الكيفية التي يتناول بها عنصر "التناص" فهو بين جدلية المفاهيم المتعددة وإمكانية التجلي من خلال النص المدروس لأن كل عنصر نظري يسهل طرحه كمفهوم مجرد، من خلال ما يستند عليه من خلفية معرفية وفلسفية، لكن الصعوبة تكمن في إقامة العلاقة الجدلية بين النص السابق في الموروث السردي والنص اللاحق في هذه الرواية المدروسة، من خلال ذلك يرصد الباحث تجليات هذه العلاقة بينهما محاولا بذلك الإجابة على بعض التساؤلات التي تتمحور في جوانب كثيرة أهمها :

- ما "التناص" ؟ وكيف كانت نظرة النقاد الغربيين والعرب إلـى هذا المفهوم ؟ . - وإذا كان "التناص" بعدا مهما لتقنيات الكتابة الروائية يقوم على الإبداع والابتداع، وعلى المحاكاة بصفة عامة، فما هي المظاهر التي يتجلى فيها "التناص" ؟، وما الأبعاد والدلالات التي يضيفها إلى جنس الرواية؟ .

-إن رواية "المعجزة" من الروايات التي كسرت نمط الرواية التقليدية، وهي أكثر من غيرها قابلة لأن تقرأ بالاعتماد على ظاهرة "التناص"، فأين يتجلى فيها هذا المفهوم وما أبعاده؟ وكيف تعامل الروائي "محمود طرشونة" مع النصوص الغائبة ؟، وما الأثر الذي أضفاه "التناص" على الرواية؟ وما هي القيم الفنية والجمالية التي أبرزتها التشكيلات التناصية فيها ؟ . هي تساؤلات كثيرة وغيرها سيحاول الباحث وضع يداه على الجرح النازف من أوصالها بإجابات متباينة هي نتائج عامة يتوصل إليها فـي خاتمة هذا البحث.

وإنه ومما لا شك فيه أن المناهج النقدية الحديثة قد أولت اهتماما بالغا للنص الأدبي وزودت الناقد بآليات وأدوات إجرائية تمكنه- إن هو أحسن استغلالها- من اكتشاف طاقات النص الإبداعية اللا محدودة، وجعلت النص الأدبي يتجدد بتجدد القراءة تلك القراءات التي تضيء أمكنة الشك وتوسع من دائرة أمكنة اليقين، غير أن أول ما يواجه الناقد عموما والناقد المبتدئ خصوصا هو إشكالية اختيار وتطبيق المنهج النقدي .

-هل اختيار المنهج يكون قبل أو بعد؟ بمعنى هل يأتي الباحث بمنهج جاهز أفرزته الظروف التي ربما قد تكون مغايرة للظروف التي أفرزت النص الأدبي ويسقطه عليه فيمدد النص متى احتاج، أو ينقص منه أجزاء ليستقيم مع تأويله الخاص، فيقتل بذلك طاقاته بدلا من أن يزينه؟ أم يأتي إلى النص فيحاوره وبعثوره على إشارة أو شيء يهتدي به إلى خباياه راح يكيف منهجه مع معطياته مراعيا بذلك خصوصياته وجمالياته؟ .

لقد وقع اختيار الباحث على هذا النص فقرأه وأحبه وتفاعل مع خباياه، فباح بأسراره وأظهر مميزاته، مما جعل طبيعة هذا النص المعالج تفرض منهجها وهو الذي يميل إلى استثمار "التناص" كمنهج نقدي، فهو مفتاح لقراءة هذه الرواية، لفهمها وتفكيكها، ولا يعني هذا أن الإفادة من بعض المناهج الأخرى كانت مستبعدة، لأنه يستحيل لمنهج واحد أن يلم بكل جوانب الموضوع، لذلك يبقى الاعتماد على بعض الأدوات الإجرائية لبعض المناهج الأخرى واردا كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

ولمحاولة الإجابة على تلك الإشكالية المطروحة اعتمد الباحث خطة لتصميم هيكل البحث اعتقد أنها مناسبة للم شتات هذا الموضوع، فاحتوت قراءته المكتوبة هذه على "مقدمة" و"خاتمة" و"ثلاثة فصول"، حفف كل فصل منها "بتوطئة"، إضافة إلى "المدخل" الذي كان بمثابة المعبر الذي يسهل الولوج إلى عالم البحث، تطرق فيه الباحث إلى حاضر الرواية التونسية وبعض الروايات التي استخدمت تقنية "التناص" فيها .

أما "المقدمة" فقد احتوت على عرض لظاهرة التجديد في الكتابة الروائية والنقد الأدبي من خلال الإشارة إلى أهمية الدراسة التناصية للرواية .

و"الفصل الأول" الذي هو بمثابة أسس نظرية لهذه الدراسة، تناول فيه الباحث مفهوم "التناص" ونظرة أبرز النقاد إلى هذا المفهوم في العالمين الغربي والعربي، لتأتي الدراسة بعد ذلك على بنية "التناص" بداية من مظاهره ثم أنواعه وصولا إلى الوظائف التي يؤديها

أما "الفصل الثاني" فقد حاول الباحث من خلاله وضع حدود وبوابات للبحث وسياجاته بداية من تقديم مضمون المدونة المدروسة وخصائصها مرورا بتجليات "التناص" وجمالياته

الناتجة عن التركيب التناصي المتنوع في هذه الرواية، مع تحديد أنواعه وتبيان بنية كل نوع ووظيفته، ليصل إلى أهم القيم الجمالية والفنية عند "محمود طرشونة" من خلال عنصر "التناص" .

أما "الخاتمة" فقد جاءت لا لتعلن عن نهاية القراءة، ولكن لتعلن عن فراغات شاسعة لا تزال تنتظر من يسود بياضها، وهي بعض الملاحظات والنتائج التي توصلت إليها رحلة الباحث نظريا وتطبيقيا .

أما فيما يخص الدراسات التي تناولت الموضوع بالدراسة والتي كانت لها علاقة قريبة به فهنالك العديد منها والتي تعتبر مراجع متنوعة عزز بها الباحث موضوعه، وأضاءت له الكثير من الجوانب أهمها: "انفتاح النص الروائي لسعيد يقطين"، "تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناص- لمحمد مفتاح"، "علم النص لجوليا كرستيفا"، "التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر لجمال مباركي"، وكذا "التجربة الروائية المغاربية لفتحي بوخالفة"،التناص التراثي-الرواية الجزائرية أنموذجا-لسعيد سلام، فضلا عن العديد من الكتب والمجلات التـي تناولت موضـوع "التناص" من قريب أو مـن بعيـد .

وإذا كان لا بد من الإشارة إلى الصعوبات التي يواجهها الباحث في مثل هذه المقاربات فهي بديهية عوارض المبتدئين من تشعب المفاهيم وكثرة الترجمات واختلافها وعدم قدرتها على ضبط المفاهيم وتحديد المصطلحات، ضف إلى ذلك قلة الدراسات التي تناولت المتن المدروس- حتى ولو عد ذلك مزية تحسب للباحث لا عليه- لكون الخوض فيه يعد مغامرة غير محسوبة النتائج .

إن هذا البحث هو محاولة بسيطة متعثرة، قد تكون أدنـى إلـى القصـور منها إلـى البراعة، وقد تكون أقرب إلـى النقص منها إلـى الكمال، وقد تكون أقرب إلـى الإخلال منها إلـى الاستيعاب، فهـي محاولة متواضعة بذل فيها الباحث جهدا متواصلا فـي البحث واستقراء النصـوص، ما أسعفته الوسيلة.. وانتهـى به الفهم.. فإن أحسن فمن فضل الله ونعمه وأما إن كان دون ذلك فعزاه أنه أخلص الجهد و حـاول .

مشيرا إلـى أن أي عمل أكاديمـي يتوصل إلـى تحقيق أية نتيجة مهما كانت فهـو مدين للمؤسسة التي ينتمي إليها، فإن هذا البحث يشيد بالدور الفعال الذي لعبته المؤسسة التـي احتضنته واحتضنت أول بذوره ممثلة فـي جامعـة زيان عاشـور بالجلفـة .

كما لا يفوت الباحث أن يتقدم بالشكر الجزيل لكل الأسـاتذة المشرفيـن علـى الدفعة وكذا الزملاء الأفـاضل، وأبلغ وأسمـى كلمات وعبارات الاعتراف والتقدير للدكتـور " أحمـد قنشـوبة " المشرف علـى البحث، والذي وجد فيه الباحث قوة هائلة علـى الصبر والتحمل ... فإليك يا دكتـور أسمـى آيات الشكـر والعرفـان...

- الطالبـة: سامية فضيلـي.

- المسيـلة: ربيـع **2012** .